المؤتمر الدولي للغة العربية وآدابها بمكة المكرمة ـ فندق هيلتون مكة للمؤتمرات
خلال الفترة ١٣ـ١٥ جمادى الآخرة ١٤٤١ هـ

"اللهجة البيضاء وأثرها على اللغة الفصحى "

د. شريفة بنت إبراهيم بن محمد بن طالب
جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز - الخرج
d.sherefah@gmail.com

المقدمة :

الحمد لله الذي أنزل القرآن ، وعلمنا الحكمة وحسن البيان (الذي نزل أحسن الحديث كتابا متشابها) قرآنا عربيا غير ذي عوج ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، النبي العربي الكريم أما بعد .

فقد تحدى الله العرب في لغتهم فأعجزهم ، وجعل القرآن معجزة البيان ، فصله فأحكم تفصيله، وبينه فأقام به البينة والفرقان ، وأخلصه فأتم به الإخلاص والناس ، حملته اللغة فما ضاقت عن آي به وبيان ، وارتفع به العرب على سائر الأمم ، وماذاك إلا لسمو لغته، وتناهيها في الكمال والجمال .

وليس من سبيل إلى إدراك عظمة القرآن وإعجازه إلا بإدراك لغته والتسامي إليها .وقد هيأ الله لهذه اللغة حفظة وعلماء، تفانوا في خدمتها والذود عنها، كانوا ومازالوا تدفع بهم الأزمان ،وتخلد ذكراهم ومآثرهم الكتب والدواوين ،ومازالت الأمم تعلو وتنخفض بعلو لغاتها، وتعتمد في حفظ مكانتها بين الأمم على دينها ولغتها، لذلك ولأكثر منه فإن اللغة دين وهوية لا يمكن التخلي عنها ، أو التهاون في شأنها ،أو التخاذل في نصرتها والذود عن حياضها .

وعلى أنها محفوظة بحفظ الدين وحفظ الله لها ، إلا أن حكمة الله في أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين ، جعلنا نتطلع إلى أن يكون شرف الدفاع عن اللغة العربية والرقي بها على أيدينا ، ومن هنا توجهت إلى هذه الدراسة غيرة على الفصحى أن تتخطف أو تضعف ، ودفاعا عنها أن تدافعها اللهجات أو تتطاول عليها العاميات ، وإن من الحقائق المسلم بها أن تشبث الأمم بلغاتها واعتزازهم بها يعني تشبثهم بالتطور والنماء والحياة.

"واللغة كالإنسان تأخذ وتعطي، وتنشأ وتعيش، وتتطور وتتسع، وتلد وتموت، وربما دخلت في صراعات واحتدامات فإن كانت قوية متماسكة، وإلا أثر فيها غيرها، أو حل محلها لتموت في الأخير، كما حصل للأكادية السامية، واللاتينية القديمة، والعبرية القديمة وغيرها. وفي ظل هذه الصراعات تنشأ أشكال أخرى، تعيش في أكناف اللغة الأم، وتتغذى بلبانها، وتأخذ في وصفها العام ملامح الأم لكنها تختلف في التفاصيل، وقد سميت هذه الأشكال حسب الاصطلاح الحديث باللهجة"[1] ومن اللهجات الطارئة على اللغة العربية والتي تم تداولها بهذا المصطلح في وسائل عديدة (اللهجة البيضاء) .

أهمية البحث:

وقد توجهت إلى البحث في هذه اللهجة ؛ ماهيتها وما تعريفها ، وما موقعها من الفصحى وآثارها عليها ، لأهمية هذا الموضوع أولا، وخطورته ثانيا، ولقلة البحوث والدراسات فيه. فالأخطار المحدقة باللغة الفصحى كثيرة ، ونداءات الغيورين للدفاع عنها متوالية، ومما دفعني إلى ذلك أن وجدته مطروحا في الإعلام وقنوات التواصل بكثرة ، وفي دول الخليج على وجه الخصوص، مما يعني أن مشكلة اللهجات وتأثيرها على الفصحى ظاهر بين في بعض البلاد العربية ، قليل بحمد الله في المملكة العربية السعودية ، وقد يكون مرد ذلك إلى أن بلادنا لم تعان من كثرة الأجانب وبقايا المستعمر، فما زالت لغتنا قوية متينة بفضل الله ثم جهود المخلصين . ولست أعجب من الباحثين في الخليج حين ينادون بتمكين اللهجة البيضاء فهم أصبحوا مثل الغريق يبحث عن القشة ، يمثل ذلك ما جاء في بعض الاستطلاعات التي أجريت في صحف ومواقع خليجية ، غلبت فيها آراء المدافعين عن اللهجات واللهجة البيضاء خاصة .

وعلى قوة حجة المدافعين عن اللغة العربية الفصحى ووضوح أهدافهم ، إلا أن الحذرين والمحذرين من اللهجة العامية لم تعل أصواتهم ، وظلت مناقشاتهم في وسائل الإعلام ،ومواقع التواصل ولم تتجاوز ذلك إلا قليلا . فلم أعثر على دراسة علمية أو بحث محكم يتناول الموضوع بالتفصيل والشمول .

من هنا أدركت أهمية البحث في هذا الموضوع ، وأن يكون لنا في المملكة العربية السعودية موقف في تصوير واقعنا ، والدفاع عن لغة العرب ولغة القرآن الكريم ،أن لا تزاحمها اللهجات ولا تعلو عليها اللغات . وذلك من خلال إيضاح حقيقة هذا المصطلح ، وتنزيلها منزلتها وتبيان مكانتها من الفصحى وعلاقتها بها ، ومضارها وآثارها ، حتى لا تتداخل النوايا الحسنة مع السيئة ، في وضع التعريف الدقيق له والدعوة إليه .

وفي ضوء حرص المؤسسات الرسمية في المملكة العربية السعودية على الدفاع عن اللغة العربية ومكانتها والدعوة إلى تعزيزها ، نجد من يشتت هذه الجهود ويعيقها - كما أشرنا بقصد أو بغير قصد – إذ تنامت الدعوات إلى تبني

[1] رشيد الزات ، اللغة واللهجة والعلاقة بينهما، مقال منشور في موقع الألوكة : ٢٠١٠/١١/١م https://dr-cheikha.blogspot.com/2015/12/blog-post_10.html

اللهجات العامية وما يسمى باللهجة البيضاء ،واعتمادها في الإعلام والتعليم والشعر والندوات والمؤتمرات ، وفي هذه الدراسة سأجلي حقيقتها وأركز على مضارها خاصة على الإعلام و التعليم والأدب .

أهداف الدراسة :

إذا تأكد لنا أن اللغة أعظم ركيزة يقف على طرفها المجتمع، فبها يعرف نسبه ، وبها يكشف عن مدى تقدمه وتخلفه ، وأن لغة لم تبلغ اللغة العربية مكانة ومنزلة ذلك أنها دين وهوية ؛ فهي لغة الوحي وتعلمها من شعائر الدين، وهي محفوظة بحفظ الله لدينه وكتابه وتسخير عباده للعناية بها ، وأنه مازالت أقوام من العرب تصون للغة عزها ومكانتها وقدرها ، فترتفع كل مناحي حياتها ، ، فإن من أوجب واجباتنا صونها وحفظها ودفع الشبهات والأخطار المحدقة بها.

لذلك جاءت هذه الدراسة هادفة إلى :الدفاع عن اللغة الفصحى ، وتجليت حقيقة اللهجة البيضاء والدعوة إلى تمكينها ، والتحذير منها ،وبيان مدى خطورتها على اللغة الفصحى خصوصا في التعليم والإعلام والأدب.

أسئلة الدراسة :

ماهي اللهجة البيضاء ؟ هل هي لغة أم لهجة أم أسلوب ؟ لماذا اللهجة البيضاء ؟ وما أسباب الدعوة إليها ؟ كيف نشأت ومتى وأين ؟ ما أثرها على الفصحى والأدب والثقافة؟

الدراسات السابقة:

مصطلح اللهجة البيضاء، أو اللغة البيضاء كما يسميها بعضهم جديد مستحدث، ولكنني لم أقف على أول من أطلقه ، أما الدعوة إليها فهي مستفيضة في الإعلام والصحافة ولدى العامة ، وقد كتب عنها كثيرون في مقالات ولقاءات صحفية ،وإن كنت لم أقف – في ما بحثت - على دراسة أو بحث علمي تطرق لها . وعلى أن هناك عددا من الباحثين تناولوا اللهجة البيضاء بالبحث، ولكنهم عدد قليل ،وغلب على أكثرهم الدعوة إلى تمكينها سبيلا إلى العودة إلى الفصحى، لما رأوه من تفشي العاميات واللغات الأجنبية في مجتمعاتهم[٢]،وإن كانت لهم مبرراتهم ومنها: كون مجتمعاتهم يغلب عليها غير العرب ،حتى أن بعضهم وصف اللهجة البيضاء بأنها تشبه العامية الهجينة ومع ذلك دعي إليها ،، والفصحى المبسطة هي الأسهل والأجدر أن يتعلمها الأجانب، ومن حججهم تبسيط الفصحى للعامة ، إلا أنها مبررات واهية ؛ إذ من المعلوم أنه يرتقى بالعامة ولا ينزل إليهم ، على الأخص في الدين واللغة والآداب وميادين الثقافة .

وأزعم أن هذا البحث يعد من أوائل الدراسات حول التحذير من تمكين اللهجة البيضاء ، إذ لم أعثر على دراسة علمية معمقة في هذا الموضوع ، تتقصى الحقائق والخصائص المتعلقة بهذا المصطلح الجديد، وتبين الحقائق المتخفية حول الدعوة إليه ، ولم أجد سوى بعض المقالات والمشاهد واللقاءات والاستطلاعات[٣] وعلى أن الدعوة

[٢] انظر : أحمد فراج ، أثر تمكين اللهجة البيضاء في العناية باللغة العربية الفصيحة ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الخامس للغة العربية ،دبي ، الإمارات ،رجب - ١٤٣٧هـ

[٣] - جلها منشور في مواقع الكترونية ،ومنها استطلاع للرأي أجرته صحفا خليجية مثل : مجلة البيان ، اللهجة البيضاء -النطق المفهوم ٢٠١٥م

إلى استخدام اللغة السهلة الميسرة المشتركة قديم ، وله جذور ممتدة إلى الأسلوب المولد ، الذي دعت الحاجة وظروف العصر لاستحداثه في العصر العباسي ، إلا أنني لم أعثر على دراسة واحدة موثقة محكمة ، تتحدث عن اللهجة البيضاء كما هي مطروحة الآن في الصحافة والإعلام ومواقع الاتصال ، ومن آخر هذه الدراسات البحث الذي تقدم به الباحث المصري أحمد فراج إلى المؤتمر الدولي الخامس للغة العربية ، وفيه دعى إلى تمكين اللهجة البيضاء ،لتكون أداة تواصل بين جميع العرب ، ونقطة انطلاق مرحلية إلى تمكين الفصيحة ، بحجة أن اللغة العربية الفصيحة تعاني من مشكلات في الانتماء اليها .

يقول : "ووضعت ضوابط تحد من طغيانها على خصائص اللغة العربية الفصحى ،وترتقي بها عن اللهجات الخاصة ،وأهمها : ألا تكون لغة كتابة ، وأن يكون الهدف منها الترقي لا التمكين فقط ، وألا يستهدف بها الأطفال دون السادسة " [٤]

وتبنى كثير من الباحثين والإعلاميين الدعوة الى اللهجة البيضاء وتوهموا في تعريفها وقيمتها ودورها ، فعلى إحسان الظن أنهم يقصدون "اللهجة الواضحة الخالية من التعقيد ومن اللهجات الخاصة لتكون أداة تواصل بين جميع العرب ونقطه اتصال مرحلية إلى تمكين الفصحى والعودة إليها" [٥]وهذه الدعوة التي تتذرع بمسايرة الواقع ليست جديدة ، وهي وهم كبير، ومغالطة لحقائق الحياة، والتاريخ شاهد على أن اللغة التي يتنازل عن جزء منها تخمد وتموت . يقول أحدهم : "إنها ليست دعوة لإهمال الفصيحة ولكنها خطوة واقعية نحو ممارسة عملية لاستخدام اللغة العربية الفصيحة ،ومن هنا يأتي دور تمكين هذه اللهجة وضرورة تبنيها من المؤسسات الحكومية والرسمية ... إن اللهجة البيضاء جاءت من منطلق الواقعية التي تفرض علينا أن نتعامل مع واقع نعيشه .."[٦]

إن كثيرا من هذه الدعوات تتذرع بالواقع ، وتنبئ عن إحباط وتشاؤم ،وضعف حيلة وعجز في الإرادة ، وانهزامية مقيتة ، وسأناقش كثيرا مما ذهب إليه الباحث خلال الصفحات القادمة .

هذه خلاصة الدراسات السابقة ، ويعد مصطلح اللهجة البيضاء مصطلحا جديدا و طارئا ، وقد تردد كثيرا خلال العشر سنوات الماضية بمعنى شفاف غير دقيق ولا واضح ، وتتبعته فوجدته أكثر ما ورد ونودي به في الإعلام المسموع، ولم يناقش حسب علمي في أروقه الجامعات ومحاضن البحث العلمي ،وإنما ضل الحديث عنه في الصحف والمجلات والإعلام المرئي والمقروء، ماعدا ذلك لم يناقش في المؤتمرات العلمية ، أو يتطرق له الباحثون في بحوثهم ، فيما عدا بعض الشذرات في مواقع التواصل الالكترونية ، والبحث السالف المقدم الى مؤتمر دبي .

[٤] - أحمد فراج ، أثر تمكين اللهجة البيضاء في العناية باللغة العربية الفصيحة ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الخامس للغة العربية ،دبي ، الإمارات ،رجب - ١٤٣٧هـ
[٥] - أحمد فراج ، أثر تمكين اللهجة البيضاء في العناية باللغة العربية الفصيحة ،ص١٦١
[٦] - المرجع السابق،ص١٦١

إجراءات ومحاور الدراسة :

سيحاول البحث دراسة آثار هذه اللهجة على اللغة الفصحى في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: : مكانة اللغة الفصحى ،ومنزلة اللهجات منها ، وسبل تمكينها وتطويرها.

المبحث الثاني: مفهوم اللهجة البيضاء ، جذورها ونشأتها، ،وحدودها وأسباب ظهورها ، ودوافع الداعين إليها.

المبحث الثالث: أضرار اللهجة البيضاء على اللغة الفصيحة في الإعلام والتعليم والأدب .

الخاتمة وفيها التوصيات .

المبحث الأول:

مكانة اللغة ،ومنزلة اللهجات منها ، وسبل تمكينها وتطويرها.

مكانة اللغة العربية :

اصطفى الله اللغة العربية الفصيحة لتكون لغة القرآن ، فكانت ولم تزل على مدى قرون طويلة وعاء الدين والعلم، وهي هوية العرب ،ووعاء تاريخهم وثقافتهم ، بها التم شملهم ، وبها حفظ تراثهم وأمجادهم ، وهي اليوم احدى اللغات الست الرسمية في هيئه الأمم المتحدة ،اعتمدت في عام ١٩٧٤م لغة رسمية عالمية ، يتحدث بها أكثر من مليار ، ويقبل الملايين على تعلمها بدوافع دينيه وعلمية وأدبية. وتعد اللغة العربية الفصحى أرقى اللغات وأكملها ،فعلى مدى القرون وفت بحاجات العلم والأدب والحياة ، ، ولم تقصر عن تلبية حاجات الزمان والمكان ،والمتغيرات والأحوال ، ونشأ على ضفافها كثير من أساليب الرزانة والرصانة والجزالة ، وأساليب اللين والوضوح والبساطة.

واللغة الفصحى لا تقتصر على المثقفين والعلماء والأدباء والكتاب؛ بل هي لغة العبادات والممارسات اليومية ، وهي لغة الإعلام والصحافة والشارع ، لغة حية مرنة ، متجددة متطورة ، طيعة لكل زمان ومكان ، وهي مثل كل اللغات الحية بحاجة إلى مزيد عناية من أهلها ، فمن المعلوم أن اللغات ترقى وتنحط ،وتموت وتحيا ، وتضعف وتتطور، ولذلك هي بحاجة إلى الرعاية المستمرة ، والجهد الدائب لحمايتها وتطويرها ، لتناسب متغيرات الزمان والمكان ، وأهم سبيل إلى حفظها وتطويرها هو ممارستها في كل مناحي الحياة. إذ اللغة -كما أشرنا – تشبه الكائن الحي تأخذ وتعطي، وتنشأ وتعيش، وتتطور وتتسع، وتلد وتموت، وربما دخلت في صراعات واحتدامات وفي ظل هذه الصراعات تنشأ أشكال أخرى، تعيش في أكناف اللغة الأم، وتتغذى بلبانها، وتأخذ في وصفها العام ملامح الأم لكنها تختلف في التفاصيل، وقد سميت هذه الأشكال حسب الاصطلاح الحديث باللهجة [٧].

وقد صنف بعض الباحثين اللهجة البيضاء في المرتبة الثالثة من درجات اللغة :"فإذا قيل أن للغة مستويات أربعة: الفصحى ثم اللهجة الفصيحة ثم اللهجة البيضاء ثم العامية ؛ فإن اللهجة البيضاء بذلك في المرتبة الثالثة بعد اللهجات

[٧] - انظر: رشيد الزات ، اللغة واللهجة والعلاقة بينها شبكة الألوكة،، ٢٠١٠/١١/١م ،https://dr-cheikha.blogspot.com/2015/12/blog-post_10.html

الفصيحة"[٨] مما يعني أنها تنافس وتزاحم اللهجات ، على ما للهجات من قيمة حضارية وتراثية مهمة إلا أنها أيضا تأتي بعدها في المنزلة، وتشكل خطرا عليها أيضا .

منزلة اللهجات من اللغة العربية الفصحى :

يعرف (الخليل بن أحمد) اللغة في كتابه العين بقوله: "اختلافُ الكلامِ في معنىً واحدٍ". وعند ابن الحاجب في مختصره "حدُّ اللغة كلُّ لفظٍ وُضعَ لمعنى" ويعرفها ابن جني ٣٩٢هـ تعريفا حديثا سابقا لزمانه، فيقول: "حدُّ اللغة أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم . أما اللهجة: ففي العين للخليل: واللّهجة طَرَف اللّسان ويُقالُ: جَرْس الكلام، ويُقال فصيح اللَّهْجَة. واللَّهَجة وهي لغته التي جُبِلَ عليها فا عتادها ونشأ عليها[٩]

ويفهم من معنى اللهجة في المعاجم العربية أنها طريقة أداء اللغة أو النطق، أو جرس الكلام ونغمته. ويعرفها المُحْدَثون بأنها: الصفات أو الخصائص التي تتميز بها بيئة ما في طريقة أداء اللغة أو النطق، كما عند عبد الواحد الوافي وغيره[١٠]

فالعربية لغة الشعوب العربية كلها، لكنهم في تطبيق هذه اللغة يختلفون من قطر إلى قطر في أصوات الحروف وصفاتها من تفخيم وترقيق وإمالة وغير ذلك ، ويمكن حصر اللهجة في الدرس اللغوي الحديث على إطلاقين، إطلاق على ما اختلفت فيه لغات القبائل العربية فيما بينها. على أنها وإن اختلفت فقد كان لها لسان مشترك يجمعها، وهو الذي وصلت به كتب التراث العربي، ونحن – يقول عبده الراجحي- لا نتصور أنهم كانوا يتحدثون في بيعهم وشرائهم وهزلهم باللغة ذاتها التي ينظمون بها شعرهم أو يضعون بها خطبهم.

وإطلاق على ما دخل اللسان العربي من العامية، وهو الذي يقصده د. رشيد العبيدي بقوله في سياق كلامه عن الصراع الذي عاشته اللغة العربية يقول: "أما على المستوى الشعبي في أقطار المتكلمين بها، فقد احتكت بأجناس وجماعات بشرية مختلفة، مارست الحديث اليومي بها، فأخذت وأعطت وتغيرت تغيرات مختلفة بحسب الظروف التي يتميز بها كل قطر، فكانت هناك لهجات شعبية تستخدم أداة للتفاهم اليومي في كل قطر".[١١]

على أن اللهجة عند المحدثين أنفسهم قد يقصد بها اللغة؛ فهذا صلاح فضل في كتابه علم الأسلوب، يقسم اللهجة إلى عائلية وضيعة مبتذلة، وأخرى رفيعة، وبينهما متوسطة، ويؤكد أن الإنسان يمكنه استعمال عدة لهجات بطريقة لا شعورية في حياته اليومية. فالمنخفضة لهجة البيت والمقهى والشارع ،والمتوسطة لهجة المهنة والمكتب والعلاقات الاجتماعية. والرفيعة لهجة المناسبات الخاصة والخطب والمواقف العامة.

[٨] عبدالرزاق الصاعدي ، موقع معجم اللغة العربية الافتراضي https://almajma3.blogspot.com/2014/03/blog-post.html
[٩] انظر: عبده الراجحي ، فقه اللغة في الكتب العربية، ص٣٠
[١٠] انظر: علي عبدالواحد وافي ، علم اللغة ، ص٧٥
[١١] رشيد العبيدي. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش. عدد مزدوج: ١٦-١٧.

والانخفاض في كلام د. صلاح لا يقصد به خفض الصوت؛ بل الانخفاض في جودة اللغة وسفولها نحو الابتذال، وبتعبير آخر فكلام البيت والشارع والمقهى لهجة، وكلام المناسبات الخاصة والخطب لغة وبينهما لغة المكتب والمهنة التي تتوسط بين هاتين.[١٢]

تتغير الدلالات تغيرا واضحا زمنيا ومكانيا، فاللفظ الواحد ينشأ في بيئة يعبر عن حقيقة وضعه لها، وتبقى هذه الحقيقة ملازمة له عبر زمان طويل من حياته، ولكن اللفظ ككل كائن حي يتأثر بالظروف والبيئات، فينموا ويتحول إلى صورة من التكيف الدلالي المناسب لكل ظرف فيبتعد عن حقيقته في بعض الأحيان ،ومن هنا تتسع اللغة ، فاللهجات بهذا المعنى تسهم في اتساع اللغة ولا تزاحمها .

أن لغة التواصل اليومي التي تنعدم فيها القواعد ويغيب فيها الانضباط باللغة الأصلية إنما هي لهجة، ومتى ارتقت إلى الرسميات والمعاملات العامة فهي لغة، كما أن اللغة بهذا المفهوم تستطيع أن ترقى إلى سدة الإبداع لتنحى منحى الجمالية عند أصحابها، دون اللهجة اليومية التي تعتبر مباشرة آنية الاستعمال لا مجال للإبداع فيها. ومما يؤكد ذلك ما يلاحظ في كل الدول العربية من توحدها على لغة واحدة في خطاباتهم الرسمية وإعلاناتهم وإذاعاتهم، يمكن أن يفهمها العراقي في بلده كما يفهمها المغربي وغيرهما، دون اللهجة اليومية التي تختلف حسب اختلاف البلدان.[١٣]

سبل تمكين الفصحى وتطويرها :

اللغة العربية لغة قوية متينة ، متفردة ، امتازت بمميزات كثيرة منها : كثرة مفرداتها، وتوالد دلالاتها ، و قيامها على جذور متناسقة غير موجودة في اللغات الأخر، وتقارب الأفعال في جذورها على عكس اللغات الأخرى ، والإعراب، وهو تغيير الحالة النحويّة للكلمات بتغيّر العوامل الداخلة عليها، ويساهم في نقل المفاهيم، وحمل الأفكار، وفهم المراد ، والاشتـقاق، وهو أخذ شيء من شيء، أو لفظ من لفظ، أو صيغة من صيغة، ويعد من الخصائص التي تميّز اللغة العربيّة عن غيرها .المترادفات والأضداد، حيث ساهمت في جعل اللغة أكثر مرونة وحيويّة .الأصوات، حيث تتعدّد أصوات اللغة العربيّة، وصفاتها المحسّنة، مثل الجهر والهمس، والرخاوة والشدّة، والترقيق والتفخيم، وغيرها .دقّة التعبير، حيث تعد من أوسع اللغـات في دقّتها، وقدرتها على التعبير عن الأحوال والصفـات، فهي مليئة بالجودة، والرصانة، والفصاحة. التعريب، وهو عملية تحويل صياغة كلمة أجنبيّة إلى صياغـة عربيّة، أو رسم لفظـة أعجميّة بأحرف عـربيّة؛ وذلك لأنّ للعربيّة قدرة عجيبة على تعريب الكلام الأجنبي.

ومن وسائل تقوية ممارسة اللغة الفصحى والاعتزاز بها : تعميم تعلمها والتعليم بها في كافّة المعارف والعلوم ، ونشرها في الجامعات، والمدارس، والابتعاد عن التفكير بأنّ التقدّم مرتبط بتعلّم اللغات الأجنبيّة، لذلك يجب تطوير

[١] انظر : صلاح فضل ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ،دار الشروق ١٩٩٨م ص٢٣٦

[١] انظر: رشيد الزات ، اللغة واللهجة والعلاقة بينها شبكة الألوكة، ٢٠١٠/١١/١م ،https://dr-cheikha.blogspot.com/2015/12/blog-post_10.html

المناهج التعليميّة في مختلف مراحل التعليم لتدريسها باللغة العربيّة، وتحديثها وتطويرها ومسايرتها لما يستجد من العلوم و بما يتلائم مع التقنية ومستجداتها .

المبحث الثاني:

مفهوم اللهجة البيضاء ، جذورها ونشأتها، وأسباب ظهورها ، ودوافع الداعين إليها.

أولا: مفهوم اللهجة البيضاء :

تنوعت تعاريفها وأوصافها ، وتباينت مواقف أصحابها حتى لم يعد لها حدودا ولا قيودا ، ولئن اتفق الداعون إليها على معنى عام وهو الوضوح والبساطة ، واتفقوا على أحد أسباب الدعوة إليها وهو الحاجة لتبسيط اللغة ، فإن تعريفهم لها لم يكن واضحا ولا بسيطا ، ويكاد كل من تطرق إليها يشرحها باللهجة البسيطة الواضحة ، ومن أبرز من تطرق لها من الباحثين د. عبدالرزاق الصاعدي ويعرفها ب(اللهجة الوسطى) يقول : "اللهجة الوسطى هي اللهجة البيضاء ، وهي أرقى من العامية ،... واللهجة البيضاء مهذبة بعض التهذيب، غير أنها فقيرة في ألفاظها ودلالاتها ،انتخبت من العاميات ماشاع من الألفاظ ، وزادت عليها ما تحتاجه من ألفاظ فصيحة في لغة التعليم والإعلام ، وهي تهدف إلى سهولة التواصل بما يتاح لها " [١٤]

ويعرفها باحث آخر ب(اللهجة المشتركة)يقول :" مصطلح اللهجة البيضاء له حضور في الوسط الثقافي ، وجمال لفظي يغري باعتماده مصطلحا لمفهوم اللهجة المشتركة ..." [١٥]ومن أسوء ماعرفت به أنها :" اللهجة البيضاء عبارة عن خليط من اللهجات المختلفة ، مع وجود بعض المصطلحات الإنجليزية، وبعض العبارات الشبابية المستحدثة، وقد دعت الحاجة إليها بسبب الانفتاح الكبير الذي وفرته وسائل الاتصال الجديدة، إذ وجدوا بعض الصعوبة في اللهجات المحلية لبعض الدول العربية فأصبح التواصل صعب، فلذلك اخترعوا (اللهجة البيضاء) وقد سميت بهذا الاسم لأنها لا تحمل أي هوية معينة فهي لهجة مشاعة للجميع" [١٦]

بينما الصحيح أن هذه التعريفات تنطبق على اللهجة الهجين ، أو اللهجة المحلية الشعبية العامة، وهي :" لغة الإعلام المحكية، وبطريقة أخرى ساخرة هي لغة أهل الرياض! حيث صبغت لهجة الرياض العامية كل وسائل الإعلام، بل وحياة الناس كلهم؛ وهذا طبيعي فهي لغة العاصمة، فصارت كأنها لغة عربية فصيحة، ومن هنا جاءت تسميتها باللغة البيضاء، وهي تشبه لغة الإعلام المحكي في لبنان وما يقال عنها إنها اللغة البيروتية، بينما اللهجة اللبنانية في الشارع شيء مختلف" [١٧]

إن نشأت اللهجة البيضاء بين العامة والصحافة والإعلام، بعيدا عن العلم والأدب يؤكد عدم نضجها وبطلانها، وأكثر من تحدث عنها ونادى بها هم الصحفيون والإعلاميون في مواقع التواصل ، بل إن أكثرهم يؤكد أنها لاتصلح أن

---

[١] - عبدالرزاق الصاعدي ، موقع مجمع اللغة العربية الافتراضي ، الرابط :https://almajma3.blogspot.com/2014/03/blog-post.htm

[١] - أحمد فراج ، أثر تمكين اللهجة البيضاء في العناية باللغة العربية الفصيحة ، ص١٦٩

[١] ريهام عبدالناصر ، مفهوم اللهجة البيضاء ونماذجها ، مقال منشور في موقع مرسال الالكتروني ٢٠١٧/١٠/١٩م

[١] - عبدالحليم البراك ،حتى لاتقتلنا اللغة البيضاء ، مقال منشور في صحيفة مكة الالكترونية ، رمضان ١٤٣٩هـ

تكون لغة للأدب ، وسأنقل ماجاء عن بعضهم في المواقع والصحف وهم مابين مؤيد لها ورافض : يقول أحد الصحفيين "البيضاء هي لغة السهل الممتنع التي يستعين بها الإعلام المكتوب إذ إنها تبتعد عن المفردات الفصيحة التي قد يعتبرها العامة معقدة وغير مفهومة ... نحن خلقنا لأنفسنا لغة بيضاء أقرب للفصحى من المحكية، وهي لغة مشتقة في الأساس من الفصحى ،بحيث تخلو تماما من الكلمات المحلية لتكون القاسم المشترك بين الشعوب العربية ، وتخرج المتحدث بها من قوقعة العامية إلى الفصحى قليلا، وقد اتفق العرب في السابق على لغة قريش ليتواصلوا ويتحدثوا بها، وعندما يرتقي شاعر النبطية بلغته أو يهبط شاعر الفصحى بها يصل كلاهما إلى اللهجة البيضاء"!

ويصف موقفه منها ومشاعره تجاهها :" أجد فارقا كبيرا بين إلقاء القصيدة النبطية والفصحى، إذ إنني أشعر بالنشوة حين ألقي قصيدتي بالفصحى التي تتمتع بسحر ومذاق خاص لأنها لغة البيان، فيما تعتبر البيضاء ابنتها، ولا يمكن أن تكون البنت أهم من الأم، لذا أشتاق إلى المسلسلات التاريخية الناطقة بالفصحى لأروي عطشي من اللغة".[١٨]

على الجانب الآخر ينفي أحد الأكاديميين وجود ما يسمى باللغة البيضاء، ويشير إلى أن اللهجات إما فصحى أو عامية متولدة عن الفصحى، وبينهما لغة الإعلام، وهي لغة ركيكة ، يقول :" لا أستطيع أن أطلق عليها بيضاء، فأي بياض فيها وهي تقطع الحبال بين الدول العربية، أما البيضاء فهي التي يجب أن تجمعنا على هدف واحد ولهجة واحدة" .[١٩]

ثم يضيف :" بات من المعلوم أن اللغة الفصحى هي البيضاء التي توحد الأمة من المحيط إلى الخليج، واللغة من أهم مقومات القومية العربية المشتركة لأنها لغة القرآن الكريم، أما اللهجات فتقتصر على بيئتها وهي ميسرة، وعندما نرغب في الإعلان عن سلعة ما باللغة الفصحى يكون أوسع انتشاراً أما إذا أعلنا عنها باللهجة الجزائرية مثلا فلن يلتفت إليها سوى أهل الجزائر فقط لأن لهذه اللهجة نمطاً نطقياً لا يفهمه غيرهم...ولكننا نستطيع القول إن هناك لغة وسطية لا ترتقي إلى الفصحى ولا تهبط إلى العامية الدارجة بل هي سهلة ميسرة تشبه لغة الإعلام حيث يفهمها العامي والمثقف ولا يمكن أن نطلق عليها بيضاء بل لغة وسطية لا تتمسك بالقواعد، مشيراً إلى أن هذه اللغة تضر بالأمة لأنها وقف على بيئتها".[٢٠]

وأشار إلى أن الخطورة ليست في أن يتحدث الناس بلهجاتهم وإنما تكمن في التحدث بها في المنتديات العامة والمؤتمرات أو في نشرات الأخبار مثل بعض القنوات اللبنانية التي يذكر فيها المذيع أو المذيعة وزير الثقافة قائلاً (وزير السآفة)..

ومما عرفت به اللهجة البيضاء أنها: " لهجة مستحدثة أي جديدة تستخدم في الكثير من وسائل الاطلاع والاستماع والإعلام كالمقابلات التلفزيونية وخصوصا الفنية، الأغاني ، المنتديات عبر الانترنيت، المقابلات الصحفية والردود

[١] عبدالله الهدية ، اللهجة البيضاء -النطق المفهوم، استطلاع للرأي منشور في مجلة البيان ،الإمارات ، ٥/١٦/ ٢٠١٥م
[١] انظر : رشاد سالم، مدير الجامعة القاسمية في الشارقة ، ضمن حديثه عن : اللهجة البيضاء -النطق المفهوم، استطلاع للرأي منشور في مجلة البيان ،الإمارات ، ٥/١٦/ ٢٠١٥م
[٢] انظر : رشاد سالم، مدير الجامعة القاسمية في الشارقة ، ضمن حديثه عن : اللهجة البيضاء -النطق المفهوم، استطلاع للرأي منشور في مجلة البيان ،الإمارات ، ٥/١٦/ ٢٠١٥م

على القراء والكثير غير ذلك. فهي لغة عربية في الأساس ولكنها خليط من عدة لهجات مع بعض المصطلحات الانجليزية وبعض التعابير الشبابية الحديثة واللزمات الكلامية . الحاجة أم الاختراع، اعتقد أن الحاجة إليها جاءت أو ازدادت مع هذا الانفتاح الهائل الذي وفرته وسائل الاتصال الحديثة، أدرك الناس صعوبة فهم اللهجات المحلية وبالتالي صعوبة التواصل فعمدوا إلى اختراع هذه اللهجة البيضاء، ومن اسمها يأتينا الإيحاء إنها بيضاء لا تحمل هوية معينة وهي ملك للجميع".[٢١]

ويعرفها آخر بقوله :" تتشابه اللهجة البيضاء مع اللهجة الهجين الموجودة في الخليج والتي نشأت بسبب وجود نسبة من الأعداد الكبيرة من الآسيويين ، وهي لهجة خليط من العربية وكلمات من اللغة الأردية واللغات الآسيوية الأخرى مع التركيز على بعض الكلمات العربية التي تستخدم في هذه اللهجة ، مثلا كلمات : صديق، رفيق ، نفر. مثلا إذا أردت أن تقول عبارة : كنت اعتقد انك شخص جيد ولكني اكتشفت انك لست جيدا وانك تحب المشاكل"![٢]

من خلال ماسبق وهذا العرض السريع لما قيل عن اللهجة البيضاء نحن أمام رأيين : إما أن يكون المقصود من البيضاء الفصحى الميسرة الواضحة البسيطة ، والموقف منها والدعوة إليها بهذا المعنى لاغبار عليه ، ويبقى النقاش حول هذا المسمى الطارئ . وإما أن يكون المقصود منها العامية الهجين المختلطة ، وهي بهذه الضوابط والأوصاف تعد كارثة حلت باللغة العربية ، وشر وخطر على الفصحى يجب مدافعتها ، خصوصا في ميادين العلم والثقافة والفنون ،وهي مانحن بصدد تجليتها وبيان آثارها على الفصحى .إذ أن كل من عرفوا اللهجة البيضاء بأنها الواضحة والبسيطة أضافوا ما يجعل الفصحى منها بريئة ، وما يباعدها عنها ، ولم يختلف أحد منهم على أن اللهجة البيضاء هي المعلومة للجميع ، ولكن أحدا لم يحدد من هؤلاء الجميع ،وماهي ضوابط هذه اللهجة وحدودها ! أين الصعوبة في الفصحى ، ولما لا تكون هي البيضاء الواضحة ، وماهو السبب في النفور من تبنيها وتمكينها والدفاع عنها بدلا من اختراع مصطلح جديد يشتت ويشعب الجهود ؟! إن كل ما دُعي إليه من أجل تمكين اللهجة البيضاء هو مادعى إليه اللغويون والمتخصصون قديما وحديثا من أجل تمكين الفصحى . فهل هي فوضى في المصطلحات أم تداخل في المسميات ؟

إنه مع إحساننا الظن بهذه الدعوات وأسبابها نشأتها ، وظروف دعاتها ومجتمعاتهم ، لكنها دعوات يظهر فيها الانهزامية والضعف الذي أصاب الأمة في كل جوانب حياتها .

إن اللغة لا تتردى بتردي المجتمعات ولكنها ترقى وترتقي بهم ، ولاتنزل إلى العامة ولكنهم يرتفعون إليها ، وإن الشعوب والعامة والأجانب ليسوا مقياسا يرجع إليه أو يعتد به من أجل التنازل عن الثوابت والمسلمات، وتمييع هوية الأمة من أجل مجاراتهم ، بل إن ضعف الأمة وضعف اللغة يحصل من وراء ذلك ، وإنما الحل في العودة إلى اللغة المتينة والتمسك بها ودعم انتشارها ، لأنها اللغة المصطفاة من الله ، ولذلك هي الأصلح والأقرب لمعالجة الضعف

[٢] ريهام عبدالناصر ، مفهوم اللهجة البيضاء ونماذجها ، مقال منشور في موقع مرسال الالكتروني ٢٠١٧/١٠/١٩م
[٢] ريهام عبدالناصر ، مفهوم اللهجة البيضاء ونماذجها ، مقال منشور في موقع مرسال الالكتروني ٢٠١٧/١٠/١٩م

والتردي ، وهل هذه البيضاء الواضحة البسيطة المتفق عليها والمعلومة للجميع إلا الفصحى ! وقد كثر ترداد هذا المصطلح والدعوة إليه ، والباحثين بين قبوله ورفضه .ومن هنا يظهر أن الخلاف في الضوابط بعد ذلك وفي المصطلح . ويظهر أن هناك تخبط وخلط في باقي التعريف ، فهناك من يعرفها بشيء ويدعو إلى أمر آخر ، وهناك من يسميها لغة ومن يسميها لهجة .

كما يظهر لدى أكثر من دعوا إليها الخلط بين اللغة واللهجة والأسلوب ، فالحاجة المؤقتة لتدارك بعض المتحدثين والمنتسبين للعربية، لاتبرر استحداث لهجة جديدة ، بل ذلك يدعو إلى البحث في الفصحى نفسها ، فهي قادرة وغير عاجزة عن السهل واللين والقريب والواضح ،من غير تشتيت الجهود وبعثرت الحلول ، وإذا كانت اللهجة البيضاء مستلة من اللغة العربية وهي الأساس فيها كما يهون من خطرها بعض المنادين لتمكينها ، فلماذا تتعدد المسميات ؟ نعم الفصحى بيضاء واضحة بسيطة على من اعتادها؛ لأن قواعدها واضحة ومقوماتها كذلك ، لكن ماهي مقومات اللهجة البيضاء أو اللهجة الهجين أو كما يحلو لبعضهم أن يسميها لهجة أهل الرياض حتى تكون بسيطة وواضحة عند أهل مراكش أو صنعاء ؟

ثانيا: نشأة اللهجة البيضاء :

الدعوة إلى اللهجة الواضحة أوالمشتركة لم تكن مستجدة ولاحديثة ، فقد سبقتها دعوات كما في العصر العباسي ، حيث دعت الأسباب والظروف المشابهة إلى تطويع اللغة للموالي والمستعربين ، فأنشأ أرباب الفصحى الأسلوب المولد ؛ وحلقوا به في سماء الثقافة والإبداع والحضارة ، وهناك تشابه كبير، وتوافق في الظروف المرتبطة بنشأة الأسلوب المولد واللهجة البيضاء ، فالأسلوب المولد وصفه شوقي ضيف بقوله :" أسلوب واضح شفاف ،ليس فيه تعقيد ، ولا إغراب ، وإنما فيه الاسترسال العذب ، وفيه الألفاظ القريبة والعبارات المبسطة حسب الأغراض والمعاني التي ينقلها ..."[٣]ويشير شوقي ضيف أيضا إلى أسباب نشأة هذا الأسلوب بقوله :" أسلوب عباسي مولد ، يلائم فيه ابن المقفع بين حاجات عصره الثقافية وبين مقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية "[٤]كما يصفه فيقول :" أسلوب يقوم على التوسط بين لغة الخاصة وما قد يكون فيها من إغراب في اللفظ ولغة العامة وما قد يكون فيها من ابتذال " [٢]وقد عرفت اللهجة البيضاء بقريب من ذلك . وإن جاز لنا المقارنة فإننا نجد الحاجة تتفق والظروف والنشأة مع اختلاف جلي فيما بين تداعيت الأسلوب المولد ، وماخلفه من إرث أدبي ، وتراث ثقافي مبدع ، ابتدأه ابن المقفع وعلا وارتفع عند الجاحظ وابن العميد وسهل بن هارون وبديع الزمان الهمذاني ، وارتقت به الثقافة العربية شوطا بعيدا ، ودونت به مصنفات اللغة والأدب قرونا طويلة ، فهو نموذج لجمال اللغة وكمالها ، واتساعها ومرونتها ومقدرتها على مواكبة كل زمان وحال ، لكنه يظل أسلوبا من أساليب اللغة الفصحى لم يتجاوز

[٢] شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه،ص١٣٤
[٢] - المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
[٢] شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ص١٣٤

ذلك . أما ما ينادى به في هذا العصر فهو مختلف وفيه خلط وتخبط ،فإن تسمية اللهجة البيضاء بهذا الاسم ثم تعريفها بالعامية ،لا يعني بياض النوايا ،وبراءة المقاصد .

المبحث الثالث:

أضرار اللهجة البيضاء على اللغة الفصيحة في التعليم والإعلام والأدب .

أولا : أضرارها على التعليم .

يقال:" إذا أردت أن تدمر أمة فابدأ بلغتها " ، والتنازل عن اللغة والتفريط فيها يودي بجميع مجالات التلقي من إعلام وفن وأدب ، لذلك يجب أن تكون اللغة العربية الفصحى هي الأساس في الحديث والتعليم ، كون التحدث بالفصحى مما يترسخ في أذهان المتعلمين خصوصا في الصفوف الأولى مما يؤثر في تطور قدرتهم على الفهم والاستيعاب ، ولذلك نصت أنظمت الحكم في كثير من الدول العربية على وجوب رعاية الفصحى والتحدث بها ، ومن المؤسف أن تكون بعض هذه الأنظمة لحفظ اللغة مجرد قرارات لاتجد حيزا في التطبيق على أرض الواقع .

وقد نص نظام الحكم في المملكة العربية السعودية على أهمية العناية باللغة الفصحى في التعليم والثقافة ، وجهود المملكة العربية السعودية في خدمة اللغة العربية الفصحى لايمكن حصرها في ورقات ويكفي أن نذكر جهود مركز الملك عبدالله لخدمة اللغة العربية .

وإن من أسباب ضعف التحدث بالفصحى في التعليم :

-أنها غير مسنودة من الجهات الرسمية ، وإن كانت كذلك فضعف الرقابة والمتابعة على تطبيق تلك الأنظمة الناصة على تطبيقها .

" إن آفة اللغة العربية اليوم أنها غير مسنودة بالتشريعات الملزمة والأنظمة الحامية لها التي تصد عنها عدوان المعتدين ، ونستطيع أن نقول إن اللغة العربية مكشوفة بلا غطاء قانوني يقيها شر المتربصين بها .بينما اللغات الحية في العالم كله مدعومة بالتشريعات ومدعمة بالأنظمة ،أو إذا شئنا قلنا مدعمة من الأنظمة ".[٢٦]

- التحد ث باللهجات واللهجة المشتركة خصوصا ، وممارستها في التخاطب ،والاكتفاء بالفصحى في الكتابة دون التحدث ، وهذا يضعف اللغة الفصحى لدى المتعلمين .

إن الحفاظ على اللغة العربية هو أحد الأساليب لمواجهة للغزو الثقافي وذلك من خلال التأكيد عليها بشكل أساسي في إطار التعليم في جميع مراحله وقد نادى بذلك كثير من الغيورين حيث أن الإبداع الحضاري هو الذي يجعل اللغة العربية أكثر إثراء وحضورا في إطار الهجمة الشرسة على اللغة الفصحى الأمر الذي يحتم إيجاد آليات لضبط عناصر تكوين هذه اللغة ، ولا سيما في مجال التعليم والإعلام والثقافة والأدب وغيرها.

[٢] عبدالعزيز التويجري ، حماية اللغة العربية بالقوانين ، جريدة الحياة ،تاريخ النشر : الجمعة ٢٠١٥/٥/١٥م

ومع ما يمكن من سنه من قوانين ، ووضع الحلول والمبادرات، إلا أن أفضل طريقة لتعلم اللغة هو التلقي والمشافهة الصحيحة ؛ لذلك كان العرب يرسلون أبناءهم للبادية لتستقيم ألسنتهم ؛ إذ إن تلقي الطلاب اللغة الأم من صغرهم بلهجات عامية يؤثر سلبا على مهارات التفكير العليا ، وهناك المئات من الأبحاث حول طرق توظيف اللغة العربية الفصيحة في مراحل التعليم المختلفة ، وقد ظهرت عدة مبادرات تشجع على التواصل باللغة العربية الفصيحة في المدارس والمؤسسات التعليمية المختلفة ، من أبرز هذه الجهود مبادرات مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية ، وقد مضى مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية في الاهتمام بلغة الطفل معولا على هدفين جوهريين هما : الطفل ،واللغة العربية لما لهما من أثر في حياة المجتمع وقدم سلسلة كتب أطلق عليها : تنمية لغة الطفل في وسائل الإعلام المعاصرة ، شارك فيها نخبة من المختصين في مجالات التربية واللغة والإعلام ، هدفهم بناء شخصيات الجيل الجديد ،وتنمية الذوق الفني لديهم ، والحفاظ على اللغة العربية ، والاعتزاز بالانتماء إليها ، والحرص على استعمالها ، والاستمتاع بمزاياها ،والإفادة من مرونتها ،وتطويعها لمتطلبات الحضارة .[٢٧]

ومن التجارب الرائدة في خدمة اللغة العربية على المستوى التعليمي تجربة برنامج افتح ياسمسم ،وهو برنامج عربي موحد اعتمد اللغة العربية الميسرة في صيغة متنوعة الفقرات ، فيه من التجديد والترفيه مايغري الطفل العربي بمشاهدته كل يوم . أنتجته مؤسسة الإنتاج البرامجي المشترك لدول الخليج العربي ،وأقرت بجميع خبرائها أن تكون لغة البرنامج اللغة العربية الميسرة ، التي يمكن للطفل العربي أن يفهمها بلا عناء ، فالبرنامج موجه إلى أطفال العرب في أقطارهم في مرحلة ماقبل المدرسة . وهدف البرنامج هو تهيئة الطفل للمدرسة الابتدائية ، جاء ذلك بعد اختبارات لغوية على العديد من الأطفال .. وكان الهدف الأول من ذلك هو تحديد مستوى اللغة الفصحى التي تناسب سن الأطفال .[٢٨]

إن أهم الصعوبات التي تعانيها اللغة العربية تتمثل في اللغة الهشة الضعيفة التي يمارسها كثير من المعلمين في العملية التعليمية ،وممارسة التعليم بالعامية واللهجة الهجين ، إضافة إلى القصور في التعليم اللغوي وفي اكساب المتعلمين مهارات التعلم الذاتي ،وقلة الصناعة الثقافية الموجهة إلى الأطفال بلهجة فصيحة ،وغياب الممارسة الحقيقة للقواعد العربية والمعجم اللغوي .

مما يعني ضرورة مواجهة التحديات أمام اللغة العربية في حقول التعليم عن طريق تعزيز الانتماء إلى اللغة في جميع المجالات ، والتركيز على أساسيات المعرفة و" تشريع قوانين لحماية اللغة " لأن حماية اللغة مسؤولية جماعية.

[٢] انظر : عادل زكي محمد ، وآخرون ، تنمية لغة الطفل في وسائل الإعلام المعاصر ، الرياض، مركزالملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية ،١٤٣٦هـ ص١٠
[٢] انظر : فرج الظفيري ، برامج الأطفال في التلفاز وأثرها في لغة الطفل ، ص ٢١٩

ثانيا : أضرار اللهجة البيضاء على الإعلام :

أضحت العلاقة بين اللغة العربية والإعلام قوية متينة ، ويغريان بالبحث والتأمل ووضع السؤال لأجل الوقوف على معالم تلك العلاقة ومفعولاتها. إنها علاقة على قدر من الالتباس والتعقيد؛ لأن الباحث لا يدري أكانت مستويات اللغة متاحة كي توظف لتبسيط أغراض الإعلام ومقاصده ؛ أم أن هذا الإعلام صار وسيلةً لترويج خصوصيات وأنماط مخصوصة وتعميمها؛ مما ينعكس على سبل التواصل لدى المتلقي العربي من جهة، وعلى وعيه وإدراكه وهويته من جهة أخرى.

وإن تشرذم المؤسسات الإعلامية الرسمية القائمة، وانحسار تأثيرها وفاعليتها، ومن ثَمّ التخلي عن مركزيتها أمام اكتساح القنوات الخاصة (التجارية تحديداً)، وانتشار الفضائيات الأجنبية الناطقة باللغة العربية. كلّ ذلك جعل الوسيلة مقدمةً على الرسالة، والربح سابقاً على جودة الخطاب، ومطلب الانتشار والتنافس مفضّلاً على داعي تحرّي الدقة والإتقان في صياغة الخطابات، كما تقتضي أعراف اللسان الفصيح وسننه.

وإن الانفتاح الإعلامي المهول، وتحوّل مرجعيته من العام إلى الخاصّ، أوجد وضعا استثنائياً في الأعراف والثوابت الراسخة في ثقافة الإعلام العربي عامةً، ولم ينزل برداً وسلاماً على المجال اللغوي العربي؛ فقد ترك تأثيرات انتهكت حرمة اللسان العربي الفصيح باسم الانفتاح وزيادة الانتشار ، ومجيء العولمة بمطامحها التنميطية، وثقافتها الاستهلاكية الفائقة، ؛ إذ غزت اللغات الأجنبية، والإنجليزية على رأسها، عوالم المرئي والمسموع، وتحديداً ألسنة مذيعي الربط، ومقدمي البرامج، ومروّجي الإعلانات، وغيرهم.[٢٩]

فتمدّد المفردات والتعبيرات الإنجليزية في خطاب المذيعين وأساليبهم، وتلوّن طرائق نطقهم وتنغيمهم ونبرهم والأدوات اللغوية المستخدمة، تشكّل مزيجاً هجيناً لا يحمل ملامح شخصية البيئة الثقافية والاجتماعية التي يُفترض به أن يتوجه إليها ،أو يكون ثابتاً من ثوابت هويتها التعبيرية ، والتداخل البيّن بين مستويات اللسان العربي في مختلف وسائل الإعلام، إضافةً إلى الغموض الحاصل في الدور المرتقب لهذه الوسائط، يحتّمان وضع أكثر من استفهام على هذا المستوى، سواء في ذلك ما يمكن أن يصيب (هوية اللغة العربية الفصيحة) من تدجين وتدمير من خلال خلخلة أركانها المنبنية عليها (صوتاً، وصرفاً، ونحواً، وتركيباً، ودلالةً)، وتخريب نسقها المعياري، أو ما يمكن أن يلحق (هوية) الناطقين بها من ارتجاج ومسخ، بوصف (اللغة هي صلب الهوية)، مثلما أن تحديد اللغة يقع في قلب تحديد (الهوية)، وكلاهما يتبوآن موقعاً مركزياً في فهم التحولات الآخذة في البروز كما يبدو من المظاهر الآتية:

– التداخل بين اللغة الفصيحة واللغة العامية في الخطاب الإعلامي:

[٢] انظر: العياشي إدراوي ،أزمة اللغة العربية في الإعلام المعاصر، مجلة الفيصل ، المغرب، ديسمبر ٢٣-٢٠١٥

وهو- كما يذكر أحد الباحثين - تداخلا ليس بريئاً أو عفوياً، وإنما هو مقصود، الهدف منه عزل اللغة العربية الفصيحة (بما تحمله من قيم ورموز وعمق تاريخي وبعد أيديولوجي)، وإحلال العاميات محلها؛ أي: الابتعاد ما أمكن -كما يتّضح في الخطاب الإعلامي- من اللغة الأم، وترسيخ (النسق الدارج). ولأن «الإعلام بمختلف وسائله الخطية والسمعية والمرئية هو أكثر المنظومات التصاقاً بالجمهور والواقع فإن كلّ التركيز يقع على قنواته ووسائطه للنيل من اللسان الفصيح؛ لذلك فنصيب الفصحى ما انفكّ يتقلّص، بزعم أن العربية لا تتلاءم مع برامج الحياة اليومية، وكأن العربية لغة مفارقة للواقع الحيّ المعيش؛ لذا يحاول هذا التوظيف الإعلامي أن يبثّ الإيهام والخداع بكون لغة الواقع (اللغة العامية) هي التي يجب أن تغدو اللغة الرسمية، وهذا معناه جعلها لغةً تعليميةً أولاً، ثم لغةً إبداعيةً ينتج بها الفكر ثانياً، ومن هنا تجد أطروحات تحطيم اللغة الفصيحة مداخلها المبتغاة!!.

وشجّعت هيمنة ثقافة الصورة (الثقافة البصرية) في مقابل تراجع ثقافة الكلمة (ثقافة المقروء)، وطغيان مبدأ الإغواء المشهدي في شكل من أشكال تفشي (لعبة الإغراء)، على انتشار الثقافة الجماهيرية بمختلف مظاهرها ووجوهها، وانحسار ثقافة النخبة على أن يتوسل الإعلام بالعاميات. [٣٠]

ولعلّ ما يزيد من استغراب المتابع للوضع الإعلامي أنه حتى البرامج الدينية قد انجرّت -في شكل من أشكال تحوّل الوعظ والإرشاد الدينيين من المنبر إلى الشاشة، أو من المسجد إلى الأستوديو- إلى المآل عينه، بل إن جمهور العلماء والدعاة والوعّاظ أضحوا يميلون إلى التداول اللهجي عبر البرامج الإعلامية، حتى الذين يتناولون منهم قضايا على قدر من التعقيد والدقة في علم القراءات أو علم الأصول أو غير ذلك، بل للأسف حتى في علم اللغة![٣١]

– اللغة الفصيحة واللهجة البيضاء والمرجعية الثقافية في الفضاء الإعلامي:

أصبحت وسائل الاتصال والإعلام العربية ؛ بفعل قوة انتشارها، وازدياد تأثيرها في المتلقي العربي، تمثّل شبه مرجعية ثقافية ولغوية لا تقلّ أهميةً عما سواها من المرجعيات القائمة المورثة. ولها قدرتها على القيام بتوجيه جمهورها وتطويره لغوياً؛ لأن أهدافها التسويقية، وخلفياتها الاستهلاكية، ومنطقها الربحي، وفلسفتها التجارية، غير المنفكة عن تجديداتها وإبداعاتها اللهجية الغربية، تكاد تطغى على همومها اللغوية؛ فمبدأ الغاية (النفعية) مُقدَّم على العناية بالوسيلة اللغوية وما تقتضيه من ضبط وإتقان، إن لم نقل: إن غاية حفظ شدّ المتلقي إلى الوسيلة الإعلامية أكبر وقت ممكن تسوّغ انتهاك حرمة اللغة الفصيحة واللسان الرصين.[٣٢]

إن الخوف على العاميات والدعوة إليها بلغت شأوا بعيد في الإعلام ومواقع التواصل ، بل ظهرت بعض العنصريات والعصبيات للعرق والمكان في بعضها إذ تكتب إحدى الباحثات عن خطر اللهجة البيضاء على العامية الإماراتية فتقول :" اللهجة البيضاء نتائجها سودا ...يتحدثون عن لهجة بيضاء يمكن أن تكون بديلا عن اللهجة

[٣] انظر: العياشي إدراوي ،أزمة اللغة العربية في الإعلام المعاصر، مجلة الفيصل ، المغرب، ديسمبر ٢٣-٢٠١٥
[٣] انظر: العياشي إدراوي ،أزمة اللغة العربية في الإعلام المعاصر، مجلة الفيصل ، المغرب، ديسمبر ٢٣-٢٠١٥
[٣] انظر: العياشي إدراوي ،أزمة اللغة العربية في الإعلام المعاصر، مجلة الفيصل ، المغرب، ديسمبر ٢٣-٢٠١٥

الإماراتية في الدراما المحلية من أجل التسويق، لا أعتقد أن اللهجة التي يمكن أن تحل بديلا للهجتنا الأم لا تكون سوى سوداء، وتبييضها مجرد خدعة لأسباب في نفس مروجي تلك المغالطة».[٣٣]بهذه النبرة من الاحتداد، تدافع الفنانة الإماراتية، هدى الخطيب، عن وجهة نظرها، التي تدعو فيها المخرجين والمنتجين إلى عدم الاستعانة بممثلين لا يجيدون اللهجة الإماراتية. وأضافت «بعض الجهات الإنتاجية تتحجج بأنها تلجأ إلى لهجة خليجية بيضاء، محل الإماراتية المحلية لأهداف تسويقية، لكن الحقيقة ان اللهجة التي تلغي لهجتنا الإماراتية الأم لا يمكن أن تكون سوى سوداء، إذا ما أصروا على أن اللهجات ألوان، لكنه في النهاية تبرير تقف وراءه أهداف غير معلنة...فضلا عن سيادة وهم اللهجة البيضاء الذي اتبعه الكثير من المنتجين، وهو أمر أثر بالتبعية في فرص انتشار اللهجة الإماراتية التي لم تأخذ فرص دعم حقيقية من محيطها».[٣٤]

من المؤسف أن يصل الإعلام إلى هذا التردي في اللغة والهوية ، وحيث أنه لا فصل بين أزمة اللغة العربية القائمة فعلاً وأزمة الهوية العربية الموجودة حقيقةً؛ فإن اندحار اللغة اندحار للهوية الموصولة بها، كما أن تأكّل هوية جماعة بشرية ينعكس على صفحات اللغة التي يتحدثونها. وإن كان من مزايا للإعلام المعاصر فإنها تتمثّل في كونه -من خلال توظيفاته اللغوية، وترسيخه نمطاً لغوياً متهرئاً- جعلنا نشاهد على شاشات القنوات الفضائية، وصفحات المواقع الإلكترونية حقيقة هويتنا المأزومة، ونقرأ على صفحات الصحف والمجلات معالم ضعفنا البارزة، ونعرف مدى تفريطنا في هويتنا ولغتنا معاً .[٣٥]

٣- آثار اللهجة البيضاء على الأدب :

لئن تجاوزنا عن بعض التقصير والضعف في ممارسة وتطبيق اللغة الفصحى في الحديث المباشر والتعاملات الشفهية في حقول التعليم والإعلام فإنه من غير المقبول بتاتا قبولها في ميادين الفن والأدب .

فإنه من أكبر الخطر على الثقافة والفنون والأدب أن تكتب أو تتلقى بلغة غير فصيحة ،وليس من المعقول التأليف أو الإبداع أو كتابة السرد والشعر بلغة ركيكة ، لا تخضع للنحو والتصريف وقواعد اللغة ، بحجة أنها مفهومة لدى الجميع ، إذ أن ذلك من أكبر مسببات ضعف اللغة والعزوف عنها .

والعرف اللساني يؤكد أن المستوى الفصيح ينحو منحى التكيّف مع المستوى التعبيري اليومي؛ بمعنى أن التلاقي والتفاعل يحدثان انطلاقاً من المستوى الفصيح، وصولاً إلى المستوى العامي، بينما العكس هو الصحيح في حال اللسان العربي الذي تتطور عاميته تدريجاً -بفعل الاحتكاك والاستعمال الإعلامي تحديداً- نحو الشكل المفصّح.

والانحراف في المجال الإبداعي والأدبي نحو استعمال العاميات على حساب اللسان الفصيح إنما هو انحراف على مستوى المرجعية اللغوية التي هي مرتكز الهوية العربية، وأساس الانتماء الحضاري للأمة الناطقة بلغة الضاد.

[٣] هدى الخطيب ، اللهجة البيضاء نتائجها سوداء ، موقع مجلة الإمارات اليوم ،فبراير ٢٠١٢م

[٣] هدى الخطيب ، اللهجة البيضاء نتائجها سوداء ، موقع مجلة الإمارات اليوم ،فبراير ٢٠١٢م

[٣] انظر: العياشي إدراوي ،أزمة اللغة العربية في الإعلام المعاصر، مجلة الفيصل ، المغرب، ديسمبر ٢٣-٢٠١٥

وليس من نافلة القول التذكير في هذا السياق بأن اللغة العربية تنفرد عن غيرها من اللغات العالمية بأنها كانت -ولا تزال- تشكّل المحور الذي تلتصق به هوية الفرد العربي وهوية الجماعة على حدٍّ سواء، وبين هذه وتلك هوية الدين. كما أنه غنيٌّ عن البيان أن هوية الدين ترتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن الكريم، ولغة الحديث النبوي الشريف.

وبناءً على ذلك، فإن التفريط في هذه اللغة في المجال الأدبي -من حيث إن الأدب هو السجل الحضاري والثقافي للأمة ،وأيّ أدب يكتب بغير لغة راقية رصينة لا يمكن أن يسهم في خلق الإبداع، أو بناء فكر، أو صناعة ثقافة ، بل من شأنه أن يقوّض الإبداع الثقافي والإنتاج الفكري؛ لأن اللسان الغريب عن التربة الحضارية للأمة لا يمكن أن يولد إلا (ثقافة غريبة)، و(فكراً مغترباً)، بل وإنساناً مغترباً عن محيطه المحلي والكوني؛ لكونه يُفقد صاحبه حقيقة وجوده، وصميم هويّته.

إن الأزمة التي تعيشها اللغة العربية الفصيحة اليوم ، والضعف الإبداعي والأدبي ،إنما هي أزمة متعددة المداخل، وفي مستويات كثيرة لم تعُدْ محتملةً: أزمة وضع في التعليم والإعلام والثقافة والفنون والأدب ، وهذا الأمر يعكس مدى هشاشة الوضع اللغوي العربي، وحدّة الأخطار المحدقة به؛ لما يعيشه من حصار بين اللغات الأجنبية الكاسحة من جهة والعاميات المتنامية من جهة أخرى، فضلاً عن التحامل المشهود على لغة الضاد بشكل مباشر أو غير مباشر محلياً وعالمياً؛ لذا فالمعالجة الملحة والعقلانية صارت أمراً لا يتحمّل مزيد إهمال ولا تأجيل؛ لأن إصلاح الشأن اللغوي المتردّي وتقويم اعوجاجاته هو في الآن نفسه ترميم وإصلاح للهوية العربية .[٣٦]

الخاتمة :

إنني وقد وصلت إلى هذه الصفحة وجب علي أن أضع نقطة النهاية؛ على أنني أشعر أنني لم أبدأ أو اتجاوز البداية بعد ، فعلى خطر مزاحمة اللهجة البيضاء للفصحى ،وظهور أمرها وذيوع صيتها بين بعض الفئات ، إلا أن موضوعها ظل مسكوتا عنه عند علماء اللغة ، وغض عنها الطرف أكثر الباحثين ولم يحذروا من تمكينها والدعوة إليها .

إن من المؤلم والمفزع أن اللغة العربية اللغة الحية الأصيلة والغنية بمفرداتها وقواعدها ،والعريقة بتاريخها ،ومع ذلك يوجد ممن يعيشون على أرضها من لا يقلقهم صباح مساء سوى التفكير في تعديلها او تبديلها للقضاء عليها او تشويهها ، ومن ذلك الدعوة إلى اللهجة البيضاء .

إنه لا بيضاء إلا الفصحى، أما الدعوة إلى اللهجة البيضاء والمقصود بها المشتركة أو الوسطى أو العامية العامة أو لهجة أهل الرياض فإنه تضليل في المصطلح ودعوة سوداء في ظاهرها وباطنها .

[٣] -هدى الخطيب ، اللهجة البيضاء نتائجها سوداء ، موقع مجلة الإمارات اليوم ،فبراير ٢٠١٢م

وإحسان الظن بالدعوة إلى اللهجة البيضاء التي تعني المشتركة أو الهجينة، وتقنينها وتقعيدها والدعوة إلى تمكينها، خطر وشر كبير على الفصحى، وله تداعيات مخيفة على الإنسان والفكر والثقافة والحضارة ، وقد سبقتها دعوات مشابهة على مر التاريخ أضرت بالفصحى ولم تخدمها كما ظن أصحابها .

ومع تعدد الدراسات وكثرة التوصيات في المؤتمرات المتعلقة باللغة العربية أو الإعلام على ضرورة استخدام اللغة العربية الفصحى في الإعلام والتعليم والفنون والأدب ، إلا أن الواقع يشهد أنه لا يوجد التزام كامل بهذه التوصيات .

لذا لابد من وضع قوانين رادعة تلزم بمراعاة وممارسة اللغة العربية الفصحى ، ونشر الوعي اللغوي بما ينبغي معرفته عن اللغة وطبيعتها وخصائصها وواقعها ومكانتها، وأثرها في بناء الأمة وتكوين الثقافة والحضارة ،والتأكيد على أن اللغة العربية هي لغة هوية بأبعادها المختلفة ،ولغة تواصل وتفاهم وتعاون ،وأن امتيازها بالامتداد الزماني الطويل والانتشار الجغرافي العظيم ،مكنها من أن تكون لغة دولية فكانت اللغة الخامسة عالميا ومن اللغات الست التي اعترفت الأمم المتحدة باستعمالها في منظماتها.

والمملكة العربية السعودية بذلت جهود واسعة لنشر اللغة العربية الفصحى ، وقطعت خطوات واسعة في تمكينها ، وما زال أمامنا خطوات كثيرة ،ونحن واثقون من أننا نسير في المسار الصحيح رغم الصعوبات والعقوبات التي نواجهها، ولكننا مستمرون بالعمل من أجل لغتنا العربية لأن من يخدم لغته يخدم أرضه وكيانه وهويته وتراثه .

وتوصي هذه الدراسة بتكثيف الجهود للدفاع عن الفصحى وتمكينها في كل مناحي الحياة ومجالاتها ، ومدافعة العاميات واللهجات على المستويات الرسمية وإبقائها في حدودها الضيقة ، وأن لا يمكن لها في المجالات الرسمية.

والله أسأل المعونة والتوفيق ، و الحمد لله أولا وآخرا .

المراجع :

١. أحمد فراج ، أثر تمكين اللهجة البيضاء في العناية باللغة العربية الفصيحة ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الخامس للغة العربية ،دبي ، الإمارات ،رجب - ١٤٣٧هـ

٢. اللهجة البيضاء -النطق المفهوم، استطلاع للرأي منشور في مجلة البيان ، ٢٠١٥م

٣. عبده الراجحي ، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية ، مصر،٢٠٠٣

٤. علي عبدالواحد وافي ، علم اللغة ، طبعة نهضة مصر ،مصر،ط٩ ،٢٠٠٤

٥. رشيد العبيدي. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش. عدد مزدوج: ١٦-١٧.

٦. عبدالرزاق الصاعدي ، موقع مجمع اللغة العربية الافتراضي ، الرابط :
https://almajma3.blogspot.com/2014/03/blog-post.htm

٧. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه، دار المعارف ، مصر ، ٢٠٠٢م ، ط١٣

٨. حتى لاتقتلنا اللغة البيضاء ، عبدالحليم البراك ، صحيفة مكة الالكترونية ، رمضان ١٤٣٩هـ

٩. عبدالعزيز التويجري ، حماية اللغة العربية بالقوانين ، جريدة الحياة ،تاريخ النشر : الجمعة ٢٠١٥/٥/١٥م

١٠. عادل زكي محمد ، وآخرون ، تنمية لغة الطفل في وسائل الإعلام المعاصر ، الرياض، مركزالملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية ،١٤٣٦هـ

١١. فرج الظفيري ، برامج الأطفال في التلفاز وأثرها في لغة الطفل ، الرياض، مركزالملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية ،١٤٣٦هـ

١٢. العياشي إدراوي ،أزمة اللغة العربية في الإعلام المعاصر، مجلة الفيصل ، المغرب، ديسمبر ٢٣-٢٠١٥

١٣. هدى الخطيب ، اللهجة البيضاء نتائجها سوداء ، موقع مجلة الإمارات اليوم ،فبراير ٢٠١٢م

١٤. ريهام عبدالناصر ، مفهوم اللهجة البيضاء ونماذجها ، مقال منشور في موقع مرسال الالكتروني ٢٠١٧/١٠/١٩م

١٥. صلاح فضل ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ،دار الشروق ١٩٩٨م